أعلام العرب

٢٧

الصاحب بن عباد

الوزير الأديب العالم

بقلم

الدكتور بدوي طبانة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه سيرة علم كبير من أعلام التاريخ فى القرن الرابع الهجرى الذى انقسمت فيه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف الى أجزاء وامارات أو دويلات ، بعد دولة واحدة كانت تجمع شمل العرب ، وترفع راية الاسلام ، وتتخذ لها قاعدة واحدة فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم فى دمشق فى بلاد الشام ثم فى دار السلام فى أرض العراق .

ففى الفترة التى لمع فيها نجم صاحب هذه السيرة كان السلطان فى شبه جزيرة أيبريا التى أصبحت تسمى بلاد الأندلس لخلفاء بنى أمية الذين أقاموا لهم هناك دولة عربية ، تنافس دولة بغداد ، وبينما كانت هذه الدولة الفتية تبنى معالم نهضة عربية مشرقة بخلفائها الذين احتفظوا بلقب « أمير المؤمنين » كانت خلافة بغداد قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف أمام قوة الجند من الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد ، وأصبحوا أصحاب الحل والعقد ، وبين أيديهم خليفة عباسى لا يملك من سلطان الدولة شيئا .

وكان الملك ببلاد افريقية للعُبَيْديين الذين قامت دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة ، وكان كل خليفة من أولئك العبيديين يلقب نفسه باللقب الكبير المأثور ، لقب « أمير المؤمنين » .

وكانت مصر والشام فى يد الاخشيديين الذين احتفظوا بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين ، فكانوا يخطبون باسمهم على المنابر ، وكذلك كانت الجزيرة الفراتية تحت امارة بنى حمدان يحكمها منهم ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ، وكانت حلب والثغور فى يد أخيه سيف الدولة على ابن عبد الله بن حمدان الشيبانى ، وكان كل منهما يخطب على المنابر فى امارته باسم الخليفة العباسى .

أما القرامطة فامتد نفوذهم وسلطانهم على عمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة ، وكانوا يخطبون باسم المهدى .

وكان السامانيون يحكمون خراسان وما وراء النهر ، ومقر ملكهم مدينة بخارى ، وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى ..

وظلت جرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وبنو بويه وآل سامان .

وكان الأمر بالعراق للديلم ، والسلطان منهم معز الدولة أحمد ابن بويه ، وكان يخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ، ثم باسم معز الدولة ، وابنه ، وابن عمه من بعده . وكذلك كان سلطان بنى بويه بالاضافة الى ذلك يمتد على بلاد فارس والأهواز والجبل والرى[1] .. تلك هى القوى الكبرى التى كانت تحكم الرقعة الاسلامية ، بعد أن تفرق الحكم تفرقا غريبا ، وقد كان قبل ذلك متماسك الأعضاء ، يرجع كله الى دولة واحدة ، وحاضرة كبرى تجمع شتاته .

(١) راجع تاريخ الأمم الاسلامية ٣/٣٨٠ .

وقد ننظر الى نظام الحكم فى ذلك القرن الرابع ، فنأسى لذلك الشمل الشتيت ، وهذه الوحدة الممزقة ، وتلك القوى التى تبددت ، وذلك الصف المتين والركن الركين ، وقد استحال أركانا متنازعة ، وقوى متنافسة ، وقيادات موزعة .

وقد نطل من زاوية أخرى لنرى من بعض الجوانب الخلية الواحدة ، وقد انقسمت خلايا عاملة توالى الكفاح ، وتواصل التقدم ، فنرى عروشا تثبت دعائمها بقوة سلطانها ، وبعظمة الأمراء وسياسة الوزراء ، مواصلة السير فى ركب الحضارة التى رسمت طريقها ، وأقامت معالمها الدولة الموحدة ذات القيادة الموحدة ..

وهناك ظاهرة يقف أمامها الباحث حائرا مفكرا ، فان تلك الجهود التى بذلتها الامارات المتوزعة والقيادات المنقسمة فى تثبيت دعائمها ، وفى ترسيخ أقدامها ، وفى دعم سلطانها — وهى جهود جبارة كانت كفيلة بأن تقف عجلة السير فى طريق التقدم والاصلاح واشاعة الأمجاد — لم تستطع أن تثنى من عزم الرجال، أو تفل من حدّهم ، أو توقف زحف الأبطال نحو مواطن العزة والقوة ، والوقوف فى وجه الغزاة والطامعين من أعدائهم الذين كانوا ينتهزون الثغرة فى الصف ، والفرقة فى الجماعة ..

فقد انقسمت الدولة الى امارات ودويلات ، والتسمية بالدويلات هنا لا تعنى ضعف السلطان ، ولا الضيق فى دائرة السطوة والنفوذ ، ولا القلة فى أعداد الرعايا والمحكومين ، وانما هى تسمية نسبية بالنظر الى الدولة الواحدة ، أو الدولة الأم ،

التى كانت أصلا لهذه الدويلات ، يضم شملها ، ويوحد كلمتها ، ويبسط شعارها من حدود الصين الى شاطىء المحيط فى آسيا وافريقية وأوربا وفى جزر البحر المتوسط . فقد كان بعض تلك الدويلات يبسط سلطانه على مساحات شاسعة من البلاد ذات الحضارة والثروة والتاريخ . بل ان كثيرا من تلك الدويلات كان يفوق كثيرا من الدول المستقلة فى العالم المتحضر وغير المتحضر اليوم من حيث سعة الرقعة ووفرة الثروة .

وهذه الدويلات كانت تقوم بعبء حراسة الأمن فى الداخل وحماية الحدود والثغور ، وكانت تقوم فى الوقت نفسه بعبء البناء واقامة معالم المجد . والحراسة عبء يستلزم توفير الحشود وبذل الجهود ، والبناء عبء يستلزم الأمن والاستقرار داخل الحدود وخارجها .

والقدرة على تحقيق هاتين الغايتين ، والنهوض بهذين العبئين ، يدل أعظم الدلالة على قوة الروح فى هذه الأمة ، وصلابة عودها ، وصفاء معدنها ، ونقاء جوهرها ..

بل ان القرن الرابع — وهو القرن الذى تقع فيه أحداث هذه السيرة — يعد فى طليعة قرون الخصب والسعة فى تاريخ هذه الأمة فى ميادين العلم ومجالات التفكير ، وفى دنيا الآداب والفنون عند الأمة العربية ؛ فقد نبغ فيه من العلماء الأعلام فى مختلف مجالات النشاط الفكرى والفنى من لا يحصون كثرة ، ولا يدركون عمقا ، ومن الأدباء والنقاد من انتهت اليهم معالم العبقرية ، وخصائص الأدب والفن ، واجتمعت فيهم خلاصة

المعارف والأذواق ، حتى كان للفكر العربى صرح ثابت الدعائم قوى الأركان ، ينشر نوره شرقا وغربا ، ويشارك فى بناء الحضارة الانسانية مشاركة فعالة مذكورة ، بل لا نجاوز الحق اذا قلنا ان هذا الفكر الذى ابتكره العرب أو الذى حملوه كان السراج الوهاج الذى بعث النور فى سائر الأرجاء .

وقد شارك فى بناء ذلك الصرح عقول وصلتها رابطة العروبة ، ورجال أظلهم لواء الاسلام ، ووحدتهم أواصر العقيدة ، فكانت لهم قرابة ورحما جعلتهم يسيرون فى طريق واحد ، توجههم وحدة الهدف ، وتدفعهم وحدة التعاليم ، متخذين من كتاب الله اماما ، ومن الكعبة قبلة ، ومن العربية لسانا .

ومن هنا كان علينا فى هذا الدور الخطير من أدوار حياتنا ونهضتنا أن نحيى هؤلاء الرجال ، وأن نمجد هذه العقول ، وأن نقدم من سبقت به قدمه ، ومن تقدم به عمله ، وأن نعد فى جحفل العروبة كل من خدم العروبة وأسدى اليها يدا بما مكن لنهضتها ، وأرسى من حضارتها ، وأعز من لغتها ، وأثرى من فنها ، وأذاع من أفكارها ومبادئها ، ودافع عن حياضها ، وبنى بكل هذا أو بشىء من هذا لها مجدا ، وجعل به لها فى العالمين ذكرا .

والعروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها المتألقة ، وأمجادها السامقة فى تاريخها المجيد أن تصهر أفذاذا من أبناء الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزا ومنعة وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبذلوا لها من عقولهم وقلوبهم وغيرتهم ما يعز على الاحصاء ، وما يستعصى على النسيان ،

فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضمتهم الى صفوة أبنائها ، وصهرت من هذه العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية متألقة وجوهرة فريدة فى جبين الزمان ، فأنساهم ذلك الاعزاز منابتهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا فى بناء نهضة وحضارة تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها فى وجه الأحداث والعواصف والمحن .

والصاحب بن عباد الذى نعرض فى هذا الكتاب لدراسة بعض جوانبه يمثل احدى تلك الشخصيات البارزة التى أحالت بعض الأطراف الحائلة فى تاريخ العرب والمسلمين صحائف من نور أخاذ يكاد يذهب بالأبصار . فقد كان الصاحب وزيرا من الوزراء الذين لا يحصى عددهم كثرة ولا سيما فى ذلك الزمان ، وكان أولئك الوزراء معدودين دائما رجال الصف الثانى الذى يلى صف الملوك والخلفاء ، ولكنه استطاع أن يثب بقوته ، وأن ترقى به همته فيكتب فى التاريخ سطرا خالدا لامعا ، يرفعه الى الصف الأول بين بناة المجد ، بل ان مجده ليفوق أمجاد ساداته الذين ارتقوا به الى ذلك المنصب الرفيع ، وبدل أن يتلاشى نوره فى أضوائهم ، أو أن يستمد هذا النور من أنوارهم ، توارت أسماؤهم وراء اسمه ، واحتجبت أنوارهم فى سطوع شمسه . وأكد بهذا أن الرجال لا يشرفون بما يقلدون من وظائف وما يتسنمون من مناصب ، وانما تشرف المناصب بالرجال ، وينصف التاريخ الرجال بالهمم والأعمال . وقد كان فى شرف

الصاحب شرف للعلم والمعرفة ، وكان فى كرامته كرامة للفن والأدب والعلم ، أو للأدباء والعلماء فى شخصه .

وكان علم الصاحب وأدبه هما سر خلوده وبقاء اسمه على صفحات التاريخ وفيما خلف من آثار بقيت على الزمان ، فى حين أن الفرقة والتناحر بين تلك الدويلات وحكامها أودى بها ، ومحاها وعفى على سلطانها فى الأذهان ، ولم يعد لها ذكر الا فى زوايا كتب حاولت أن تسد الثغرات فى حساب الزمان ، فلا يوقف عليها الا بعد عنت ومشقة ، وكان هذا النسيان ثمرة وجزاء لما اقترفوه من تشتيت الشمل ، وتمزيق الصف ، فكان ما أشرنا اليه من معالم القوة أشبه بوميض البرق الذى يأتلق ، وسرعان ما ينطفىء فى فترات لا تذكر فى مراحل التاريخ التى لا تحصى بالسنين ، ولكن بعد أن هدت كيان الأمة واستنفدت جهودها ومقدراتها ، وأفنت فتوة أبنائها بما شغلتهم به فى سبيل الحفاظ على سلطان زائل ، ارضاء لشهوة السلطان ، واستجابة لنزوة الاستعلاء ، واشباعا للمطامع . وقد أدى هذا التفكك فيما بعد الى أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج ، فتكاثفت عوامل الضعف والانحلال حتى طمع فى سيادة الأوطان أعداء هذه الأمة الذين انتهزوا فرصة الضعف والهوان ، فاستعمروا البلاد ، وأذلوا أهلها ، واستنزفوا خيراتها ، وفى ذلك عبرة لمن تحركه الأطماع ، وتستبد به الشهوات على حساب الشعب العريق ، وذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ولم يكن هدفنا فى دراسة الصاحب أبى القاسم اسماعيل بن